سورة الحديد

مدنيَّةٌ في قول الجميع، وهي تسع وعشرون آية[1].

عن العِرباض بن سارية أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ بالمسبِّحات قبل أن يرقد، ويقول: «إنَّ فيهنَّ آيةً أفضلُ من ألفِ آيةٍ»[2] يعني بالمسبِّحات: «الحديد» و«الحشر» و«الصف» و«الجمعة» و«التغابن».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي: مجَّد الله، ونزّهه عن السوء. وقال ابن عباس: صلَّى لِله «مَا فِي السَّمَواتِ» ممن خَلَق من الملائكة «وَالْأَرْض» من شيء فيه رُوح أو لا رُوح فيه. وقيل: هو تسبيح الدلالة. وأنكر الزجَّاج[3] هذا وقال: لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهورِ آثار الصنعة لكانت مفهومةً؛ فلِمَ قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٤٤] وإنَّما هو تسبيح مقال. واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] فلو كان هذا تسبيح دلالة، فأيُّ تخصيص لداود؟! قلت: وما ذكره هو الصحيح، وقد مضى بيانه والقول فيه في «سبحان»[4] عند قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الآية: ٤٤]. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٣.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٥٧)، والترمذي (٢٩٢١)، والنسائي في الكبرى (٧٩٧٢)، وأحمد (١٧١٦٠). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) في معاني القرآن له ٥/ ١٢١.

(٤) ١٣/ ٨٩.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: انفرد بذلك. والْمُلك عبارة عن المَلْك ونفوذ الأمر، فهو سبحانه الملك القادر القاهر. وقيل: أراد خزائن المطر والنبات وسائر الرزق. ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ يميت الأحياء في الدنيا، ويحيي الأموات للبعث. وقيل: يُحيي النُّطَف وهي موات، ويُميت الأحياء. وموضع «يُحْيِي وَيُمِيتُ» رفع على معنى: وهو يحيي ويميت. ويجوز أن يكون نصباً بمعنى «لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ» محيياً ومميتاً على الحال من المجرور في «لَهُ» والجار عاملاً فيها[1]. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: الله لا يُعجِزه شيء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ اختلف في معاني هذه الأسماء وقد بيَّنَّاها في الكتاب «الأسنى»[2]. وقد شرحها رسول الله ﷺ شرحاً يغني عن قول كلِّ قائل، فقال في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة: «اللهمَّ أنت الأوَّل فليس قَبْلك شيء، وأنت الآخِر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنا الدَّيْن، واغننا من الفقر»[3] عنى بالظاهر الغالب، وبالباطن العالم، والله أعلم. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ بما كان أو يكون، فلا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ﴾

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢١.

(٢) ص ١٣٣، ١٥١، ٢٠٩.

(٣) مسلم (٢٧١٣): (٦١)، وهو عند أحمد (٨٩٦٠).

تقدّم في «الأعراف»[١] مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يَدخُل فيها من مطر وغيره ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وغيره ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من رِزْق ومطر ومَلَك ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد[٢] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يعني: بقدرته وسلطانه وعِلْمه[٣] ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يبصر أعمالكم ويراها، ولا يخفى عليه شيء منها. وقد جمع في هذه الآية بين «اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» وبين «وَهُوَ مَعَكُمْ» والأخذ بالظاهرين تناقض، فدلَّ على أنَّه لا بُدَّ من التأويل، والإعراضُ عن التأويل اعتراف بالتناقض. وقد قال الإمام أبو المعالي: إنَّ محمَّداً ﷺ ليلةَ الإسراء لم يكن بأقربَ إلى الله عزَّ وجلَّ من يونس بنِ متى حين كان في بطن الحوت. وقد تقدَّم[٤].

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا التكرير؛ للتأكيد، أي: هو المعبود على الحقيقة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: أمور الخلائق في الآخرة.

وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حَيْوة وابن مُحَيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائي وخَلَف: «تَرْجِع»[٥] بفتح التاء وكسر الجيم، الباقون: «تُرْجَعُ».

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[٦]. ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: لا تخفى عليه الضمائر[٧]، ومن كان بهذه الصفة فلا يجوز أن يُعبَد من سواه.

---

(١) ٩/ ٢٣٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٧٠.

(٤) ١٨/ ٩٦.

(٥) النشر ٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٦) ٥/ ٨٥ - ٨٦.

(٧) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٨٨.

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: صدِّقوا أنَّ الله واحد، وأنَّ محمداً رسوله[١] ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ تصدَّقوا. وقيل: أنفقوا في سبيل الله. وقيل: المراد الزكاة المفروضة. وقيل: المراد غيرها من وجوه الطاعات وما يقرب منه[٢] ﴿مِّمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ دليل على أنَّ أصل الملك لله سبحانه، وأنَّ العبد ليس له فيه إلا التصرُّف الذي يُرضِي الله، فيثيبه على ذلك بالجنَّة، فمن أنفق منها في حقوق الله وهانَ عليه الإنفاق منها، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أَذن له فيه، كان له الثواب الجزيل والأَجْر العظيم[٣]. وقال الحسن: «مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» بوراثتكم إيَّاه عمَّن كان قبلكم[٤]. وهذا يدلُّ على أنَّها ليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النُّوَّاب والوكلاء، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحقِّ قبل أن تُزال عنكم إلى من بعدكم[٥]. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وعملوا الصالحات ﴿مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟﴾ في سبيل الله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ﴾ استفهام يُراد به التوبيخ. أي: أيُّ عُذْرٍ لكم في ألَّا تؤمنوا وقد أُزيحت العلل؟! ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ بيَّن بهذا أنَّه لا حكم قبل ورود الشرائع.

وقرأ أبو عمرو: «وقد أُخِذَ ميثاقُكُم» على غير مسمَّى الفاعل[٦]. والباقون على

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٢ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧١ .
(٣) الكشاف ٤/ ٦١ بنحوه .
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧١ .
(٥) الكشاف ٤/ ٦١ .
(٦) السبعة ص ٦٢٥، والتيسير ص ٢٠٨ .

مسمَّى الفاعل؛ أي: أخذ الله ميثاقكم. قال مجاهد: هو الميثاق الأوَّل الذي كان وهم في ظهر آدم بأنَّ الله ربَّكم لا إله لكم سواه[١]. وقيل: أخذ مِيثاقكم بأن ركَّب فيكم العقول، وأقام عليكم الدلائل والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول ﷺ[٢]. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إذ كنتم. وقيل: أي: إن كنتم مؤمنين بالحُجَج والدلائل[٣]. وقيل: أي: إن كنتم مؤمنين بحقٍّ يوماً من الأيام؛ فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا؛ لقيام الحُجَج والأعلام ببعثة محمَّد ﷺ، فقد صحَّت براهينه[٤]. وقيل: إن كنتم مؤمنين بالله خالقكم. وكانوا يعترفون بهذا. وقيل: هو خطاب لقوم آمنوا، وأخذ النبيُّ ﷺ ميثاقَهم، فارتدُّوا. وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» أي: إن كنتم تقرُّون بشرائط الإيمان.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يريد القرآن[٥]. وقيل: المعجزات؛ أي: لزمكم الإيمان بمحمَّد ﷺ؛ لما معه من المعجزات، والقرآنُ أكبرها وأعظمها. ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ أي: بالقرآن. وقيل: بالرسول. وقيل: بالدعوة. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وهو الشرك والكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وهو الإيمان[٦]. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أيُّ شيء يمنعكم من

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٥٦، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٩٠.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤.
(٣) زاد المسير ٨/ ١٦٣.
(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٩٠.
(٥) الوسيط ٤/ ٢٤٥.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤.

الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقرِّبكم من ربِّكم، وأنتم تموتون وتخلِّفون أموالكم، وهي صائرة إلى الله تعالى[١]. فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: إنَّهما راجعتان إليه بانقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحقِّ له[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أكثر المفسِّرين على أنَّ المراد بالفتح فتح مكة. وقال الشعبيُّ والزهريُّ: فتح الحُدَيْبية[٣]. قال قتادة: كان قتالان أحدهما أفضلُ من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضلُ من الأخرى، كان القتال والنفقة قبل فتح مكَّة أفضلَ من القتال والنفقة بعد ذلك[٤]. وفي الكلام حذف، أي: «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ» ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، فحذف؛ لدلالة الكلام عليه[٥]. وإنَّما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأنَّ حاجة الناس كانت أكثر؛ لضعف الإسلام، وفِعْلُ ذلك كان على المنفقين حينئذٍ أشقّ، والأَجْر على قدر النَّصَب[٦]، والله أعلم.

الثالثة: روى أشهب عن مالك قال: ينبغي أن يُقدَّم أهل الفَضْل والعزم، وقد قال الله تعالى: «لا يَسْتَوي مِنْكُم من أَنْفَقَ من قَبْلِ الفَتْحِ وقَاتَلَ». وقال الكلبيُّ: نزلت في أبي بكر ﷺ؛ ففيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر ﷺ وتقديمه؛ لأنَّه أوَّل من أسلم. وعن ابن مسعود: أوَّل من أظهر الإسلام بسيفه النبيُّ ﷺ وأبو بكر؛ ولأنَّه أوَّل من أنفق على نبيِّ الله ﷺ. وعن ابن عمر قال: كنت عند النبيِّ ﷺ وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خَلَّلَها في صدره بِخِلال، فنزل جبريل فقال: يا نبيَّ الله! ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧١.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٤.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧١، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٣٩٣.

(٥) الكشاف ٤/ ٦٢.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٩، وما بعده منه أيضاً.

قد خلَّلَها في صدره بِخِلال؟ فقال: «قد أنفق عليَّ ماله قبل الفتح» قال: فإنَّ الله يقول لك: اقرأ على أبي بكر السلام وقل له: أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقرأ عليك السلام، ويقول: أراضٍ أنتَ في فقرك هذا أم ساخط»؟ فقال أبو بكر: أأسخط على ربِّي؟ إنِّي عن ربِّي لراضٍ! إنِّي عن ربِّي لراضٍ! إنِّي عن ربِّي لراضٍ! قال: «فإنَّ الله يقول لك: قد رضيتُ عنك كما أنتَ عنِّي راضٍ» فبكى أبو بكر، فقال جبريل عليه السلام: والذي بعثكَ يا محمد بالحقِّ، لقد تَخلَّلت حملةُ العرش بالعُبِيّ منذ تَخلَّل صاحبك هذا بالعباءة[1]. ولهذا قدَّمته الصحابة على أنفسهم، وأقرُّوا له بالتقدُّم والسَّبق.

وقال عليُّ بن أبي طالب ﷺ: سبق النبيُّ ﷺ وصلَّى أبو بكر وَثَلَّثَ عمر؛ فلا أوتى برجل فَضَّلني على أبي بكر إلا جلدته حدَّ المفتري ثمانين جلدةً وطرح الشهادة[2]. فنال المتقدِّمون من المشقَّة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضًا أنفذ.

الرابعة: التقدُّم والتأخُّر قد يكون في أحكام الدنيا، فأمَّا في أحكام الدِّين فقد قالت عائشة رضي الله عنها: أَمَرَنا رسول الله ﷺ أن نُنْزِل الناسَ منازلهم. وأعظم المنازل مرتبةً الصلاة. وقد قال ﷺ في مرضه: «مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس»

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٤٥ - ٢٤٦ ، وأسباب النزول للواحدي ص ٤٣١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩٤ - ٢٩٥ ، والحديث أخرجه ابن حبان في المجروحين ٢/ ١٨٥ ، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ١٠٥ - ١٠٦ ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٢/ ١٠٥ من طرق ودون الزيادة الأخيرة ، وهي من قوله ﷺ : فإن الله يقول لك : «قد رضيت عنك...» إلى آخر الحديث ، ولم نقف عليها . وفي إسناد بعض طرقه: العلاء بن عمرو ، قال عنه ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به بحال. اهـ. وفي بعضها الآخر : محمد بن بابشاذ ، قال عنه البغدادي : في حديثه غرائب ومناكير .

(٢) أخرجه أحمد (١٠٢٠) ، وابن سعد في الطبقات ٦/ ١٣٠ ، وأبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٤٥٨ ، والطبراني في الأوسط (١٦٦١) من طرق ومقتصرين على شطره الأول مع زيادة . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٥٤ : رواه أحمد ، وقال : ثم خبطتنا فتنة ، يريد أن يتواضع بذلك . رواه الطبراني في الأوسط ، ورجال أحمد ثقات . اهـ. ومعنى قوله ﷺ: وصلَّى أبو بكر. أي: أتى ثانياً، والمصلِّي في خيل الحلبة هو الثاني، سُمِّي به؛ لأن رأسه يكون عند صَلَا الأول، وهو ما عن يمين الذَّنَب وشماله. النهاية (صلا).

الحديث[١]. وقال: «يَؤُمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله» وقال: «وليؤمّكما أكبركما» من حديث مالك بن الحُوَيْرث وقد تقدَّم[٢]. وفهم منه البخاري وغيره من العلماء أنه أراد كِبر المنزلة، كما قال ﷺ: «الولاء لِلكبر»[٣] ولم يَعْنِ كِبَرَ السِّنِّ. وقد قال مالك وغيره: إنَّ للسنِّ حقاً. وراعاه الشافعيُّ وأبو حنيفة، وهو أحقُّ بالمراعاة؛ لأنَّه إذا اجتمع العِلْم والسِّنُّ في خيِّرين، قُدِّم العِلْم، وأما أحكام الدنيا فهي مرتَّبة على أحكام الدِّين، فمن قُدِّم في الدين قُدِّم في الدنيا. وفي الآثار: «ليس مِنَّا من لم يُوقِّر كبيرَنَا، ويرحمْ صغيرنا، ويعرفْ لعالمنا حقَّه»[٤]. ومن الحديث الثابت في الأفراد: «ما أكرم شابٌّ شيخاً لسِنِّه إلا قَيَّض الله له عند سنِّه من يُكرِمه»[٥]. وأنشدوا:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٩ ، وما بعده منه أيضاً ، وحديث عائشة أخرجه أبو داود (٤٨٤٢) وقال: ميمون لم يدرك عائشة. اهـ. وأورده مسلم في مقدمة صحيحه ١/ ٦ . والحديث الآخر سلف ٢/ ٣٧ .

(٢) الحديث الأول سلف ٢/ ٣٦ ، والثاني سلف ٨/ ٦٢ - ٦٣ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠ ، وما بعده منه أيضاً ، والحديث لم نقف عليه مرفوعاً ، وإنما أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٦٢٣٨) ، والدارمي (٣٠٢٢) عن علي وعمر وزيد بن ثابت أنهم كانوا يجعلون الولاء للكبر . وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١١/ ٤٠٤ عن عمر وعبد الله وزيد ، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٣٠٦ عن علي وعبد الله وزيد بن ثابت من قولهم . وورد عند بعضهم : الولاء للكبير . وذكره الزيلعي في نصب الراية ٤/ ١٥٥ وعزاه للقاسم بن حزم السرقسطي في كتابه «غريب الحديث» وقال : وقال في موضع آخر : قال يعقوب : الولاء للكُبْر - بضمِّ الكاف - وهو أكبر ولد الرجل المعتق . انتهى .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠ ، وقول مالك في المدونة ١/ ٨٣ ، والحديث أخرجه أحمد (٦٩٣٧) ، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٨) ، والترمذي (١٩٢٠) من حديث عبد الله بن عمرو ، ودون قوله ﷺ : «ويعرف لعالمنا حقَّه» وأخرجها أحمد (٢٢٧٥٥) ، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٣٢٨) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ ، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٢٧ : رواه أحمد والطبراني في الكبير ، وإسناده حسن . اهـ. وقال الترمذي عن حديث عبد الله بن عمرو : حديث حسن صحيح .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠ ، والحديث أخرجه الترمذي (٢٠٢٢) ، والعقيلي في الضعفاء الكبير ٤/ ٣٧٥ عن أنس ﷺ . قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ يزيد ابن بيان. اهـ . وقال العقيلي : لا يتابع عليه ولا يعرف إلا به .

يا عائبًا لِلشيوخ مِن أَشَر ... دَاخَلَهُ في الصِّبَا ومِن بَذَخِ
اذكر إذا شئتَ أن تُعيِّبهُمْ ... جَدَّكَ واذكر أباك يابن أخِ
واعلم بأن الشباب منسلِخٌ ... عنك وما وِزْرُه بمنسلِخِ
من لا يعزّ الشيوخَ لا بلغتْ ... يوماً به سِنُّه إلى الشَّيَخِ[1]

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المتقدِّمون المتناهون السابقون، والمتأخِّرون اللاحقون، وعَدَهم الله جميعاً الجنَّة مع تفاوت الدرجات[2].

وقرأ ابن عامر: «وَكُلٌّ» بالرفع، وكذلك هو بالرفع في مصاحف أهل الشام[3]. الباقون: «وَكُلًّا» بالنصب على ما في مصاحفهم، فمن نصب؛ فعلى إيقاع الفعل عليه، أي: وَعد الله كلًّا الحسنى. ومن رفع؛ فلأنَّ المفعول إذا تقدَّم ضَعُفَ عمل الفعل، والهاء محذوفة من وَعَدَه[4].

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ندب إلى الإنفاق في سبيل الله. وقد مضى في «البقرة»[5] القول فيه. والعرب تقول لكلِّ من فَعَلَ فِعْلًا حسنًا: قد أقرض. كما قال:

وإذا جُوزِيتَ قَرْضاً فَاجْزِهِ ... إنَّما يَجْزِي الفتى ليس الْجَمَلْ[6]

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٠، ونسبه لابن عبد الصمد السرقسطي، وورد فيه وفي (م): تُعيِّرهم، بدل: تُعيِّبهم.
(٢) الكشاف ٤/ ٦٣.
(٣) السبعة ص ٦٢٥، والتيسير ص ٢٠٨.
(٤) الحجة للفارسي ٦/ ٢٦٦ - ٢٦٧.
(٥) ٤/ ٢١٩.
(٦) القائل لبيد، وسلف ٤/ ٢٢٢.

وَسُمِّيَ قرضاً؛ لأنَّ القرض أُخرِج لاسترداد البدل. أي: من ذا الذي ينفق في سبيل الله حتى يبدِله الله بالأضعافِ الكثيرة. قال الكلبي: «قرضاً» أي: صدقة «حَسَناً» أي: محتسباً مِن قلبه بلا مَنٍّ ولا أذًى. ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ ما بين السبع إلى سبع مئة، إلى ما شاء الله من الأضعاف[1]. وقيل: القرض الحسن هو أن يقول: سبحانَ الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، رواه سفيان عن أبي حيان. وقال زيد ابن أسلم: هو النفقة على الأهل. الحسن: التطوُّع بالعبادات. وقيل: إنَّه عمل الخير، والعرب تقول: لي عند فلان قرضُ صِدْقٍ، وقرضُ سُوءٍ[2]. القشيريُّ: والقرض الحسن أن يكون المتصدِّق صادقَ النِّيَّة، طيِّب النفس، يبتغي به وجه الله، دون الرياء والسُّمعة، وأن يكون من الحلال.

ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الرديء فيخرجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] وأن يتصدَّق في حال يأمل الحياة؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ سئل عن أفضلِ الصدقة فقال: «أن تُعطِيَه وأنت صحيح شحيح تأمل العيشَ، ولا تُمْهِلْ حتى إذا بلغت التراقي قلتَ: لفلان كذا، ولفلان كذا»[3]. وأن يُخفيَ صدقته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وألَّا يَمُنَّ؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وأن يستحقرَ كثيرَ ما يُعطي؛ لأنَّ الدنيا كلَّها قليلة، وأن يكون من أحبِّ أمواله؛ لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وأن يكون كثيراً؛ لقوله ﷺ: «أفضل الرِّقاب أغلاها ثمنًا، وأَنْفَسُها عند أهلها»[4].

«فَيُضَاعِفَهُ لَهُ» وقرأ ابن كثير وابن عامر: «فَيُضَعِّفَه» بإسقاط الألف إلا ابنَ عامر

---

(١) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٢١ و٣٠/ ٢٨ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٢ ، وقول أبي حيان أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥١٠ ، وابن أبي حاتم في التفسير ٢/ ٤٦١ (٢٤٣٣) ، وقول زيد بن أسلم أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٢/ ٤٦٠ (٢٤٣٢) .

(٣) الوسيط ٤/ ٢٤٧ ، وما بعده منه أيضاً ، والحديث سلف تخريجه ٣/ ٦٢ بالهامش .

(٤) الوسيط ٤/ ٢٤٧ ، والحديث سلف تخريجه ١٠/ ٥٨ .

ويعقوب نصبوا الفاء. وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة: «فَيُضَاعِفُهُ» بالألف وتخفيف العين إلا أنَّ عاصماً نصب الفاء، ورفع الباقون[١] عطفاً على «يُقْرِضُ». وبالنصب جواباً على الاستفهام. وقد مضى في «البقرة»[٢] القول في هذا مستوفى. ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ العامل في «يَوْمَ»: «وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ»[٣]، وفي الكلام حذف، أي: «وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ» في «يَوْم تَرَى» فيه ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ أي: يمضي على الصراط، في قول الحسن[٤]، وهو الضياء الذي يمرون فيه ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: قدَّامهم. ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ قال الفرَّاء[٥]: الباء بمعنى «في» أي: في إيمانهم. أو بمعنى «عن» أي: عن أيمانهم. وقال الضحَّاك[٦]: «نُورُهُم» هُدَاهُم «وَبِأَيْمَانِهِمْ» كتبهم، واختاره الطبريُّ[٧]. أي: يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانهم كتب أعمالهم. فالباء على هذا بمعنى «في». ويجوز على هذا أن يوقف على «بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» ولا يوقف إذا كانت بمعنى «عن».

وقرأ سهل بن سعد الساعدي وأبو حيوة: «وبإيمانِهِم» بكسر الألف[٨]، أراد الإيمان الذي هو ضدُّ الكفر. وعطف ما ليس بظرف على الظرف؛ لأنَّ معنى الظرف الحال، وهو متعلِّق بمحذوف. والمعنى: يسعى كائنًا «بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» وكائنًا «بِإِيْمَانِهِمْ»، وليس قوله: «بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» متعلِّقًا بنفس «يَسْعَى».

---

(١) السبعة ص ٦٢٥ ، والتيسير ص ٨١ ، والنشر ٢/ ٢٢٨ .

(٢) ٤/ ٢٢٧ .

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧١٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٣ .

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٢٢ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٥ .

(٧) في تفسيره ٢٢/ ٣٩٨ بإسناده عنه.

(٨) القراءات الشاذة ص ١٥٢ ، والمحتسب ٢/ ٣١١ ، وما بعده منه .

وقيل: أراد بالنور: القرآن. وعن ابن مسعود: يُؤْتَوْنَ نورهم على قَدْر أعمالهم، فمنهم من يُؤتَى نوره كالنخلة، ومنهم من يُؤتَى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً مَن نوره على إبهام رِجْله، فيُطفأ مرَّةً ويُوقَد أخرى[١]. وقال قتادة: ذكر لنا أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «إنَّ مِن المؤمنين من يُضِيءُ نُوره كما بين المدينة وعدنِ [أَبْيَنَ من اليَمَن أو صنعاء[٢]]، ودون ذلك، حتى يكون منهم من لا يُضِيءُ نوره إلا موضع قدميه». قال الحسن: ليستضيؤوا به على الصراط، كما تقدَّم. وقال مقاتل: ليكون دليلاً لهم إلى الجنَّة[٣]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ التقدير: يقال لهم: «بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ» دخول جنَّاتٍ. ولا بُدَّ من تقدير حذف المضاف؛ لأنَّ البشرى حدث، والجنَّة عين، فلا تكون هي هي[٤]. «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ» أي: من تحتهم أنهار اللبن والماء والخمر والعسل من تحت مساكنها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الدخول المحذوف، التقدير: «بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ» دخول جنَّاتٍ «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» مقدرين الخلود فيها، ولا تكون الحال من بشراكم؛ لأنَّ فيه فصلاً بين الصلة والموصول. ويجوز أن يكون مما دلَّ عليه البشرى، كأنَّه قال: تبشرون خالدين. ويجوز أن يكون الظرف الذي هو «الْيَوْمَ» خبراً عن «بُشْرَاكُمُ»، و«جَنَّاتٌ» بدلاً من البشرى، على تقدير حذف المضاف، كما تقدَّم. و«خَالِدِينَ» حال حسب ما تقدَّم. وأجاز الفرَّاء[٥] نصب «جَنَّات» على الحال، على أن يكون «الْيَوْمَ»

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٩ ، والطبري ٢٢/ ٣٩٨ .

(٢) ما بين حاصرتين في (د) هكذا : أو ما بين اليمن وصنعاء . وفي (م) : أو ما بين المدينة وصنعاء . والمثبت من (ظ) ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩٥ ، وتفسير الطبري ٢٢/ ٣٩٧ - ٣٩٨ بإسناده عنه ، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٥ . قال الحَمَوي في معجم البلدان ٤/ ٨٩ : عَدَن، بالتحريك ، وآخره نون : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ... وتضاف إلى أَبْين ، وهو مخلاف عدن من جملته .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٧٣ .

(٤) البيان لابن الأنباري ٢/ ٤٢١ ، والمشكل لمكي ٢/ ٧١٧ .

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٢ ، ونقله عنه المصنف بواسطة مكي بن أبي طالب في المشكل ٢/ ٧١٧ .

خبراً عن «بُشْرَاكُمُ» وهو بعيد، إذ ليس في «جَنَّات» معنى الفعل. وأجاز أن يكون «بُشْرَاكُمُ» نصبًا على معنى: يبشرونهم بشرى، وينصب «جنَّات» بالبشرى، وفيه تفرقة بين الصلة والموصول.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ العامل في «يَوْمَ»: «ذَلِكَ هُوَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ». وقيل: هو بدل من اليوم الأول[1]. ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ﴾ قراءة العامَّة: بوصل الألف مضمومة الظاء، من نظر، والنظر: الانتظار، أي: انتظرونا. وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثَّاب: «أَنْظِرُونَا» بقطع الألف وكسر الظاء[2]، من الإنظار. أي: أمهلونا وأخِّرونا، أنظرته: أخَّرته. واستنظرته أي: استمهلته[3]. وقال الفرَّاء[4]: تقول العرب: أنظِرني: انتظرني، وأنشد لعمرو بنِ كُلْثوم:

أبا هِندٍ فلا تَعْجلْ عَلَيْنَا ... وأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ الْيقينَا

أي: انتظرنا. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نستضيء من نوركم[5]. قال ابن عباس وأبو أمامة: يغشى الناسَ يوم القيامة ظلمةٌ ـ قال الماورديُّ[6]: أظنُّها بعد فصل القضاء ـ ثم يعطون نوراً يمشون فيه. قال المفسِّرون: يُعطي الله المؤمنين نوراً يوم القيامة على

(١) المشكل لمكي ٢/ ٧١٨.

(٢) السبعة ص ٦٢٥ - ٦٢٦، والتيسير ص ٢٠٨، والنشر ٢/ ٣٨٤، وتفسير الطبري ٢٢/ ٤٠٠.

(٣) الصحاح (نظر).

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٣، والبيت الآتي سلف ٢/ ٢٩٨.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٤٧٤ وما قبله منه أيضاً، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٠١ عن ابن عباس.

قَدْر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويُعطي المنافقين أيضًا نوراً خديعةً لهم؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[١] [النساء: ١٤٢] وقيل: إنَّما يُعطَون النور؛ لأنَّ جميعَهم أهلُ دعوة دون الكافر، ثم يسلب المنافق نوره؛ لنفاقه، قاله ابن عباس[٢]. وقال أبو أمامة: يُعطى المؤمن النور، ويُترَك الكافر والمنافق بلا نور[٣]. وقال الكلبيُّ: بل يَستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يُعطَون النور، فبينما هم يمشون، إذ بعث الله فيهم ريحًا وظلمة، فأطفأ بذلك نور المنافقين، فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ يقوله المؤمنون؛ خشيةَ أن يُسلبوه كما سلبه المنافقون، فإذا بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواضعَ أقدامهم قالوا للمؤمنين: «انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ».

﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ أي: قالت لهم الملائكة: «ارْجِعُوا». وقيل: بل هو قول المؤمنين لهم[٤]: «ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ» إلى الموضع الذي أخذنا منه النور، فاطلبوا هنالك لأنفسكم نوراً، فإنَّكم لا تقتبسون من نورنا. فلما رجعوا وانعزلوا في طلب النور، ضرب بينهم بسور. وقيل: أي: هلَّا طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا. «بِسُورٍ» أي: سُورٌ؛ والباء صلة[٥]. قاله الكسائيُّ. والسُّور: حاجز بين الجنَّة والنار. وروي أنَّ ذلك السُّور ببيت المَقْدس عند موضع يعرف بوادي جهنَّم[٦]. ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ يعني: ما يلي منه المؤمنين ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ يعني: ما يلي المنافقين. قال كعب الأحبار: هو الباب الذي ببيت المقدس المعروف بباب الرحمة. وقال عبد الله ابن عمرو: إنَّه سُور بيت المقدس الشرقيُّ، باطنه فيه المسجد «وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٤ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٢٧ (١٨٨٢٢) و(١٨٨٢٣) بنحوه .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦ .

(٦) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٠١ - ٤٠٢ ، وأخرج القول الأخير عن ابن عباس وكعب وعبد الله بن عمرو ، وسيوردهم المصنف قريباً .

الْعَذَابُ» يعني: جهنَّم. ونحوه عن ابن عباس[١]. وقال زياد بن أبي سوادة: قام عبادة بن الصامت على سُور بيت المقدس الشرقيِّ فبكى، وقال: من هَاهُنَا أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّه رأى جهنَّم[٢]. وقال قتادة: هو حائط بين الجنَّة والنار «بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ» يعني: الجنَّة «وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ» يعني: جهنَّم[٣]. وقال مجاهد: إنَّه حجاب كما في «الأعراف» وقد مضى القول فيه[٤]. وقد قيل: إنَّ الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين[٥].

قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا، يعني: نصلِّي مثل ما تصلُّون [ونغزوا مثل ما تغزون[٦]] ونفعل مثل ما تفعلون ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: يقول المؤمنون: «بَلَى» قد كنتم معنا في الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: استعملتموها في الفتنة. وقال مجاهد: أهلكتموها بالنِّفاق. وقيل: بالمعاصي، قاله أبو سنان. وقيل: بالشهوات واللذات، رواه أبو نمير الهَمْدانيُّ[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٦ عن كعب وابن عمرو، وسلف تخريجه عنهما - وعن ابن عباس - في التعليق السابق.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٢، والحديث أخرجه ابن حبان (٧٤٦٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٢٦٦)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٢٩ من طريق سعيد بن عبد العزيز، عن زياد بن أبي سوادة، به. وسعيد بن عبد العزيز قد اختلط قبل موته، وزياد بن أبي سوادة قال عنه أبو حاتم في الجرح والتعديل ٣/ ٥٣٤: لا أراه سمع من عبادة بن الصامت. اهـ. وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٨-٤٧٩، عن محمد بن ميمون، عن بلال بن عبد الله، عن عبادة، به، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: بل منكر، وآخره باطل؛ لأنه ما اجتمع عبادة برسول الله ﷺ هناك، ثم من هو ابن ميمون وشيخه؟ وفي نسخة أبي مسهر: عن سعيد عن زياد بن أبي سوادة قال: رئي عبادة... فهذا المرسَل أجود. اهـ.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٧٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٠٤ مختصراً.

(٤) ١١/ ٢٢٦.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٧٥.

(٦) ما بين حاصرتين جاءت في (ظ) و(د) هكذا: ونقرأ مثل ما تقرؤون. والمثبت من (م)، والنكت والعيون ٥/ ٤٧٦ والكلام منه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٧، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٠٤ - ٤٠٥.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: «تَرَبَّصْتُمْ» بالنبيِّ ﷺ الموت، وبالمؤمنين الدوائر. وقيل: «تَرَبَّصْتُمْ» بالتوبة «وارْتَبْتُمْ» أي: شككتم في التوحيد والنبوَّة. ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ أي: الأباطيل[١]. وقيل: طول الأمل[٢]، وقيل: هو ما كانوا يتمنَّونه من ضَعْفِ المؤمنين ونزول الدوائر بهم[٣]. وقال قتادة: الأماني هنا: خِدَع الشيطان. وقيل: الدنيا، قاله عبد الله بن عباس. وقال أبو سنان: هو قولهم: سَيُغْفَر لنا[٤]. وقال بلال بن سعد: ذِكْرك حسناتِك، ونسيانك سيئاتِك غِرَّة. ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني: الموت. وقيل: نصرة نبيِّه ﷺ. وقال قتادة: إلقاؤهم في النار[٥].

﴿وَغَرَّكُم﴾ أي: خدعكم ﴿بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الشيطان، قاله عكرمة. وقيل: الدنيا، قاله الضحاك[٦]. وقال بعض العلماء: إنَّ للباقي بالماضي معتَبَرًا، وللآخِر بالأوَّل مزدجَرًا، والسعيد من لا يغترُّ بالطمع، ولا يركن إلى الخُدَع، ومن ذكر المنيَّة نسي الأمنيَّة، ومن أطال الأمل نسي العمل، وغفل عن الأجل. وجاء «الْغَرُورُ» على لفظ المبالغة للكثرة[٧].

وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمَيْفَع وسِمَاك بن حرب: «الغُرُورُ» بضمِّ الغين[٨]، يعني: الأباطيل، وهو مصدر.

وعن ابن عباس: أنَّ نبيَّ الله ﷺ خطَّ لنا خطوطًا، وخطَّ منها خطًّا ناحية فقال: «أتدرون ما هذا؟ هذا مَثَلُ ابنِ آدم ومثل التمنِّي، وتلك الخطوط الآمال بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت»[٩]. وعن ابن مسعود قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا مربعًا،

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٥.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٣.
(٣) الوسيط ٤/ ٢٤٩.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٤٠٦ عن قتادة.
(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦، دون قوله: وقيل: نصرة نبيِّه ﷺ. فمن معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٥.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٧٦.
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٥٩.
(٨) القراءات الشاذة ص١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١١.
(٩) لم نقف عليه.

وخطَّ وسطه خطًّا وجعله خارجًا منه، وخطَّ عن يمينه ويساره خطوطًا صغارًا فقال: «هذا ابن آدم، وهذا أَجَلُه محيط به، وهذا أَمَلُه قد جاوز أجلَه، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإن أَخْطَأه هذا نهشه هذا، وإن أَخْطَأه هذا نهشه هذا»[١].

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أيُّها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أَيْأَسَهم من النجاة. وقراءة العامة: «يُؤْخَذُ» بالياء؛ لأنَّ التأنيثَ غيرُ حقيقيٍّ؛ ولأنَّه قد فصل بينها وبين الفعل. وقرأ ابن عامر ويعقوب: «تُؤْخَذُ» بالتاء[٢]، واختاره أبو حاتم؛ لتأنيث الفدية. والأوَّل اختيار أبي عبيد، أي: لا يقبل منكم بَدَل ولا عِوَض ولا نَفْس أخرى. ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مقامكم ومنزلكم ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: أَوْلَى بكم[٣]، والمولى: من يتولَّى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن كان ملازمًا للشيء. وقيل: أي: النار تملك أمرهم[٤]، بمعنى أنَّ الله تبارك وتعالى يُرَكِّب فيها الحياة والعقل فهي تتميَّز غيظًا على الكفَّار، ولهذا خوطبت في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: ساءت مرجعًا ومصيرًا.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: يقرب ويحين[٥]، قال الشاعر:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٧)، قال ابن حجر في فتح الباري ١١/ ٢٣٨: الأعراض، جمع عَرَض - بفتحتين -: وهو ما ينتفع به في الدنيا في الخير والشر. ونَهَشَه: أصابه.

(٢) السبعة ص ٦٢٦، والتيسير ص ٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٨٤، والكشف لمكي ٢/ ٣١٠ - ٣١١.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥٢، وغريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥٣.

(٤) الوسيط ٤/ ٢٤٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٧٨، وما بعده منه.

أَلَمْ يَأنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرُكَ الجهلا وأن يُحْدِثَ الشَّيبُ المبينُ لنا عَقْلَا[١]

وماضيه: أَنَى ـ بالقصر ـ يَأنِي[٢]. ويقال: آنَ لكَ ـ بالمد ـ أن تفعل كذا، يَئِينُ أَيْناً، أي: حَانَ، مثل أَنَى لك، وهو مقلوب منه[٣]. وأنشد ابن السِّكِّيت:

أَلَمَّا يَئِنْ لِي أَنْ تُجَلَّى عَمَايَتِي وأُقْصِرُ عن لَيْلَى بَلَى قَدْ أَنَى لِيَا

فجمع بين اللغتين.

وقرأ الحسن: «أَلَمَّا يَأْنِ»[٤]، وأصلها «أَلَمْ» زيدت «ما» فهي نفي لقول القائل: قد كان كذا، و«لم» نفي لقوله: كان كذا.

وفي «صحيح مسلم»[٥] عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا اللهُ بهذه الآية: «أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْرِ اللهِ» إلا أربعُ سنين.

قال الخليل: العتاب: مخاطبة الإدلال، ومذاكرة المَوْجِدة[٦]. تقول: عاتبته معاتبة ﴿أَن تَخْشَعَ﴾ أي: تذلَّ وتلين ﴿قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ روي أنَّ المزاح والضحك كثر في أصحاب النبيِّ ﷺ لما ترفَّهوا بالمدينة، فنزلت الآية[٧]؛ ولما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «إنَّ الله يستبطئكم بالخشوع»[٨] فقالوا عند ذلك: خَشَعنا. وقال ابن عباس: إنَّ الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاثة عشرة سنة من نزول القرآن[٩].

---

(١) القائل كُثيِّر عزَّة، وهو في ديوانه ص ٢١٥، ورواية عجزه هكذا:

وأن يُحدِث الشيب المُلمُّ ليَ العقلا

(٢) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٥٣.

(٣) الصحاح (أين)، وما بعده منه أيضاً.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٥٢، والمحتسب ٢/ ٣١٢، وما بعده منه.

(٥) برقم (٣٠٢٧).

(٦) الصحاح (عتب)، وما بعده منه أيضًا، والمصنف نقله عنه بواسطة المفهم ٧/ ٤٠٦، وما بعده منه أيضاً.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٤، وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٨ (١٨٨٢٣) عن مقاتل بن حيان.

(٨) لم نقف عليه.

(٩) النكت والعيون ٥/ ٤٧٧، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٨ (١٨٨٢٥).

وقيل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة. وذلك أنَّهم سألوا سلمانَ أن يُحدِّثهم بعجائب التوراة فنزلت: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ الآية [يوسف: ١-٣]؛ فأخبرهم أنَّ هذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم، فكفُّوا عن سلمان، ثم سألوه مثل الأوَّل فنزلت: «أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْر اللهِ وما نَزَلَ من الحقِّ» فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا في العلانية باللسان[١].

قال السديُّ وغيره: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا» بالظاهر، وأسرُّوا الكفر «أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ». وقيل: نزلت في المؤمنين[٢].

قال سعد: قيل: يا رسول الله، لو قصصتَ علينا، فنزل: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ» فقالوا بعد زمان: لو حدَّثْتَنا، فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] فقالوا بعد مدَّة: لو ذكَّرتنا، فأنزل الله تعالى: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْر اللهِ وما نَزَلَ من الحقِّ»[٣]. ونحوه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول: ما أحدثنا؟ قال الحسن: استبطأهم وهم أحبُّ خَلْقه إليه[٤].

وقيل: هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام؛ لأنَّه قال عقيب هذا: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ» أي: ألم يَأْنِ للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلينَ قلوبهم للقرآن، وألَّا يكونوا كمتقدِّمي قوم موسى وعيسى، إذ طال عليهم الأَمَد بينهم وبين نبيِّهم فقست قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ أي: وألَّا يكونوا، فهو منصوب عطفاً على «أَنْ

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٧ وعزاه لابن عباس وابن مسعود والقاسم بن محمد.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٤٣٢ بإسناده عنه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٧٧، وسلف تخريجه قريباً عن ابن مسعود.

تَخْشَعَ». وقيل: مجزوم على النهي[١]، مجازه: ولا يكونن، ودليل هذا التأويل رواية رُوَيس عن يعقوب: «لَا تَكُونوا» بالتاء[٢]، وهي قراءة عيسى وابن إسحاق. يقول: لا تسلكوا سبيلَ اليهود والنصارى، أُعطوا التوراةَ والإنجيلَ فطالت الأزمان بهم.

قال ابن مسعود: إنَّ بني إسرائيل لما طال عليهم الأَمَد قست قلوبُهم، فاخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استحلته أنفسهم، وكان الحقُّ يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم كأنَّهم لا يعلمون، ثم قالوا: اعْرِضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل، فإن تابعوكم فاتركوهم، وإلا فاقتلوهم. ثم اصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم، وقالوا: إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد، وإن أَبَى قتلناه، فلا يختلف علينا بعده أحد، فأرسلوا إليه، فكتب كتابَ الله في ورقة وجعلها في [قَرنٍ] وعَلَّقها فِي عنقه، ثم لبس عليه ثيابه، فأتاهم، فعرضوا عليه كتابَهم، وقالوا: أتؤمن بهذا؟ فضرب بيده على صدره، وقال: آمنتُ بهذا. يعني: المعلَّق على صدره. فافترقت بنو إسرائيل على بِضْع وسبعين مِلَّة، وخير مللهم أصحاب ذِي القَرْن. قال عبد الله: ومن يَعِشْ منكم فسيرى منكَراً، وبحَسب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيِّره أن يُعلِم اللهَ من قلبه أنَّه له كاره[٣].

وقال مقاتل بن حيان: يعني: مؤمني أهل الكتاب طال عليهم الأمد واستبطؤوا بَعْثَ النبيِّ ﷺ[٤].

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني: الذين ابتدعوا الرهبانيَّة أصحاب الصوامع. وقيل: من لا يعلم ما يتديَّن به من الفقه ويخالف من يعلم. وقيل: هم من لا يؤمن في علم الله تعالى، ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بُعِث النبيُّ ﷺ فآمنوا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٠.

(٢) النشر ٢/ ٣٨٤.

(٣) أخرجه بتمامه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٣٩ (١٨٨٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٥٨٩)، وأخرجه مختصراً الطبري ٢٢/ ٤١٠، وما بين حاصرتين من مصادر التخريج، والقَرَن: الجعبة. اللسان (قرن).

(٤) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٣٠ عن مقاتل بن سليمان.

به، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فَسَّقهم اللهُ. وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكَّة مجدِبين، فلما هاجروا أصابوا الرِّيف والنعمة، ففتروا عمَّا كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا.

وذكر ابن المبارك[1]: أخبرنا مالك بن أنس، قال: بلغني أنَّ عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تُكثِروا الكلام بغير ذِكْر الله تعالى فتقسو قلوبكم، فإنَّ القلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنَّكم أرباب، وانظروا فيها ـ أو قال: في ذنوبكم ـ كأنَّكم عبيد، فإنَّما الناس رجلان، معافًى ومبتلًى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية.

وهذه الآية: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْر اللهِ» كانت سببَ توبة الفُضيل بن عياض وابنِ المبارك ـ رحمهما الله تعالى. ذكر أبو المطرِّف عبد الرحمن ابن مروان القَلَانسيُّ قال: حدثنا أبو محمد الحسن بن رشيق، قال: حدَّثنا علي بن يعقوب الزيَّات، قال: حدَّثنا إبراهيم بن هشام، قال: حدَّثنا زكريا بن أبي أبان، قال: حدَّثنا الليث بن الحارث، قال: حدَّثنا الحسن بن داهر، قال: سئل عبد الله بن المبارك عن بدء زهده قال: كنت يوماً مع إخواني في بستان لنا، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا، وكنت مولعًا بضَرْب العودِ والطُّنبور، فقمت في بعض الليل فضربت بصوت يقال له: راشين السَّحَر، وأراد سنان يغنِّي، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة، والعود بيدي لا يجيبني إلى ما أريد، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان ـ يعني العود الذي بيده ـ ويقول: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْر اللهِ وما نَزَلَ من الحقِّ» قلت: بلى واللهِ!وكسرتُ العودَ، وصَرَفتُ مَن كان عندي، فكان هذا أوَّل زهدي وتشميري[2]. وبلغنا عن الشعر الذي أراد ابن المبارك أن يضرب به العود:

أَلَـمْ يَـأْنِ لـي مـنـك أن تَـرْحَـمَـا ... وتَـعْـصِ الـعَـواذِلَ والـلُّـوَّمـا

(١) في كتابه الزهد (١٣٥)، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية ٦/٣٢٨.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٣١٧) - ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٢/٤٠٧ بإسناد آخر عن ابن المبارك، ودون ذكر قوله: فضربت بصوت يقال له ... إلى قوله: يغني.

وتَـرْثِـي لـصَـبٍّ بـكـم مُـغْـرَم أقـام عـلـى هـجـرِكـم مَـأْتَـمَـا
يَـبِـيـتُ إِذَا جَـنَّـهُ لَـيْـلُـهُ يُـراعِـي الـكَـواكِـبَ والأَنْـجُـمَـا
ومـاذا عـلـى الـظَّـبـيِ لَـوْ أَنَّـهُ أَحَـلَّ مِـن الـوَصْـلِ مـا حَـرَّمَـا

وأما الفُضيل بن عياض فكان سبب توبته أنَّه عشق جاريةً، فواعدته ليلًا، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع قارئًا يقرأ: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذين آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْر اللهِ» فرجع القهقرى وهو يقول: بلى واللهِ قد آن! فآواه الليل إلى خَربَة وفيها جماعة من السابلة، وبعضهم يقول لبعض: إنَّ فضيلًا يقطع الطريق. فقال الفضيل: أوَّاه! أراني بالليل أسعى في معاصي الله، قوم من المسلمين يخافونني! اللهمَّ إنِّي قد تبتُ إليك، وجعلتُ توبتي إليك جوار بيتك الحرام[1].

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: «يُحْيِي الْأَرْضَ» الجَدْبة «بَعْدَ مَوْتِهَا» بالمطر. وقال صالح المُرِّيُّ: المعنى: يُلِيِّن القلوب بعد قساوتها[2]. وقال جعفر بن محمد: يُحييها بالعدل بعد الجَوْر. وقيل: المعنى: فكذلك يُحيي الكافرَ بالهدى إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة. وقيل: كذلك يُحيِي الله الموتى من الأمم، ويميِّز بين الخاشع قلبه وبين القاسي قلبه[3]. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله، وأنَّه لمحيي الموتى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٣١٦)، والخَرِبة: موضع الخراب. والسابلة: المارُّون على الطرقات المتردِّدون في حوائجهم. المعجم الوسيط (خرب) و(سبل).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧٨.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٤ بنحوه.

الصاد فيهما[١]، من التصديق، أي: المصدِّقين بما أنزل الله تعالى. الباقون بالتشديد، أي: المتصدِّقين والمتصدِّقات، فأدغِمت التاء في الصاد، وكذلك في مصحف أُبيٍّ[٢]. وهو حثٌّ على الصدقات، ولهذا قال: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالصدقة والنفقة في سبيل الله. قال الحسن: كلُّ ما في القرآن من القَرْض الحسن فهو التطوُّع[٣]. وقيل: هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسبًا صادقًا. وإنَّما عطف بالفعل على الاسم؛ لأنَّ ذلك الاسم في تقدير الفعل، أي: إنَّ الذين صدَّقوا وأقرضوا ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ أمثالها. وقراءة العامة بفتح العين على ما لم يُسَمَّ فاعله. وقرأ الأعمش: «يُضَاعِفُه» بكسر العين وزيادة هاء[٤]. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب: «يُضَعَّفُ» بفتح العين وتشديدها[٥]. ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ اختلف في «الشُّهَدَاء» هل هو مقطوع مما قبل، أو متَّصل به. فقال مجاهد وزيد بن أسلم: إنَّ الشهداء والصدِّيقين هم المؤمنون، وأنَّه متصل، وروى معناه عن النبيِّ ﷺ، فلا يُوقَف على هذا على قوله: «الصِّدِّيقُونَ» وهذا قول ابن مسعود في تأويل الآية[٦]. قال القشيريُّ: قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] فالصدِّيقون هم الذين يتلون الأنبياء، والشهداء هم الذين يتلون الصدِّيقين، والصالحون يتلون الشهداء، فيجوز أن تكون

---

(١) السبعة ص ٦٢٦ ، والتيسير ص ٢٠٨ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١٥٢ .

(٣) سلف تخريجه عند الآية (١١) من هذه السورة .

(٤) لم نقف عليها .

(٥) السبعة ص ١٨٤ - ١٨٥ ، والتيسير ص ٨١ ، والنشر ٢/ ٢٢٨ .

(٦) أخرجه عنهم الطبري ٢٢/ ٤١٤ - ٤١٥ ، إلا أن خبر زيد بن أسلم أخرجه عنه ، عن البراء بن عازب قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : مؤمنو أمتي شهداءُ . قال : ثم تلا النبيُّ ﷺ : ﴿والذين آمنوا بالله ورسله فأولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم﴾ . وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٨ ، وينظر المكتفى في الوقف والابتداء للداني ص ٥٥٥ - ٥٥٦ .

هذه الآية في جملة من صدَّق بالرسل، أعني: «والَّذين آمَنُوا باللهِ ورسلِه أولئك هُمُ الصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ». ويكون المعنى بالشهداء، مَن شهِدَ لله بالوحدانية، فيكون صدِّيق فوق صدِّيق في الدرجات، كما قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ أهل الجنَّات العلا ليراهم مَن دونهم، كما يرى أحدكم الكوكب الذي في أُفق السماء، وإنَّ أبا بكر وعمر منهم وأنْعَمَا»[١].

وروي عن ابن عباس ومسروق أنَّ الشهداءَ غيرُ الصدِّيقين[٢]. فالشهداء على هذا منفصل مما قبله، والوقف على قوله: «الصِّدِّيقُونَ» حسن[٣]. والمعنى: «والشهداء عند ربِّهم لهم أجرهم ونورهم» أي: لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم. وفيهم قولان:

أحدهما: أنَّهم الرسل يَشهدون على أُممهم بالتصديق والتكذيب، قاله الكلبيُّ، ودليله قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

الثاني: أنَّهم أُمم الرسل يَشهدون يوم القيامة، وفيما يشهدون به قولان: أحدهما: أنَّهم يشهدون على أنفسهم بما عملوا من طاعة ومعصية. وهذا معنى قول مجاهد[٤]. الثاني: يشهدون لأنبيائهم بتبلغيهم الرسالة إلى أُممهم، قاله الكلبيُّ. وقال مقاتل قولاً ثالثاً: إنَّهم القتلى في سبيل الله تعالى. ونحوه عن ابن عباس أيضاً قال: أراد شهداء المؤمنين. والواو واو الابتداء. والصدِّيقون على هذا القول مقطوع من الشهداء[٥].

وقد اختلف في تعيينهم، فقال الضحَّاك: هم ثمانية نفر؛ أبو بكر وعليٌّ وزيد

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٢٦٦، والحديث لم نقف عليه مسنداً.

(٢) تفسير البغوي ٤/٢٩٨، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/٤١٣، وعن مسروق - وحده - أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/٢٧٦.

(٣) ذكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٩٢٥، والداني في المكتفى في الوقف والابتداء ص ٥٥٥ أن الوقف على قوله تعالى: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ تامٌّ.

(٤) النكت والعيون ٥/٤٧٩، وما بعده منه أيضاً.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/٣٦١.

وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة. وتابعهم عمر بن الخطاب ﷺ، ألحقه اللهُ بهم لما صدَّق نبيَّه ﷺ[١]. وقال مقاتل بن حبان: الصدِّيقون هم الذين آمنوا بالرسل ولم يكذبوهم طرفةَ عين[٢]، مثل مؤمن آل فرعون، وصاحب آل ياسين، وأبي بكر الصديق، وصاحب أصحاب الأخدود[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: بالرسل والمعجزات ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ فلا أجر لهم ولا نور.

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وجه الاتصال أنَّ الإنسان قد يَترُك الجهاد خوفاً على نفسه من القتل، وخوفًا من لزوم الموت، فبيَّن أنَّ الحياة الدنيا منقضِية فلا ينبغي أن يترك أَمْرَ الله محافظةً على ما لا يبقى.

و«ما» صلة، تقديره: اعلموا أنَّ الحياة الدنيا لعِب باطل ولهو فرح ثم ينقضي[٤]. وقال قتادة: لعب ولهو: أكل وشرب. وقيل: إنَّه على المعهود من اسمه. قال مجاهد:

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٥١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩٨، وجاءت تتمة العبارة فيهما هكذا: وتاسعهم عمر بن الخطاب ألحقه الله بهم؛ لما عرف من صدق نيته.

(٢) الوسيط ٤/ ٢٥١، ونسبه إلى المقاتِلَيْن ابن حبان، وابن حيان.

(٣) في (م): وأصحاب الأخدود.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٨.

كلُّ لعب لهو[١]. وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»[٢]، وقيل: اللَّعب: ما رَغَّب في الدنيا. واللَّهو: ما ألهى عن الآخرة، أي: شَغل عنها. وقيل: اللعب: الاقتناء. واللهو: النساء[٣]. ﴿وَزِينَةٌ﴾ الزينة: ما يتزيَّن به، فالكافر يتزيَّن بالدنيا ولا يعمل للآخرة[٤]، وكذلك من تزيَّن في غير طاعة الله.

﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يفخر بعضكم على بعض بها. وقيل: بالخِلْقة والقوَّة. وقيل: بالأنساب على عادة العرب في المفاخرة بالآباء[٥]. وفي «صحيح مسلم» عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد»[٦]. وصحَّ عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه قال: «أربع في أمتي من أَمْرِ الجاهلية: الفخر في الأحساب»[٧] الحديث. وقد تقدَّم جميع هذا. ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ لأنَّ عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة[٨]. قال بعض المتأخِّرين: «لَعِبٌ» كلعب الصبيان «وَلَهْوٌ» كلهو الفتيان «وَزِينَةٌ» كزينة النسوان «وَتَفَاخُرٌ» كتفاخر الأقْران «وَتَكَاثُرٌ» كتكاثر الدُّهقان[٩]. وقيل: المعنى أنَّ الدنيا كهذه الأشياء في الزوال والفناء[١٠].

وعن عليٍّ ﷺ أنَّه قال لعمَّار: لا تحزن على الدنيا؛ فإنَّ الدنيا ستَّة أشياء: مأكول

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠.

(٢) ٨/ ٣٦١.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠.

(٤) زاد المسير ٨/ ١٧١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠.

(٦) مسلم (٢٨٦٥): (٦٤)، وسلف ١١/ ١٢٩.

(٧) سلف ص٢٢٨ من هذا الجزء.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠.

(٩) الدهقان، بكسر الدال وضمها: التاجر، فارسي معرَّب. اللسان (دهق).

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٢.

ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح؛ فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة، وأكثر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان، وأفضل ملبوسها الدِّيباج وهو نَسْجُ دودة، وأفضل المشموم المِسْك وهو دم فأرة، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال، وأما المنكوح فالنساء وهو مبال في مبال، واللَّهِ، إنَّ المرأة لتزيّن أحسنها يراد به أقبحها.

ثم ضرب الله تعالى لها مثَلا بالزرع في غيث فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي: مطر ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الكفَّار هنا: الزرَّاع؛ لأنَّهم يغطُّون البَذْر. والمعنى أنَّ الحياة الدنيا كالزرع يُعجِب الناظرين إليه، لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشِيمًا كأنْ لم يكن، وإذا أعجب الزرَّاع فهو غاية ما يستحسن[١]. وقد مضى هذا المثل في «يونس» و«الكهف»[٢] وقيل: الكفَّار هنا الكافرون بالله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهم أشدُّ إعجابًا بزينة الدنيا من المؤمنين[٣]. وهذا قول حسن؛ فإنَّ أصل الإعجاب لهم وفيهم، ومنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدنيا وما فيها. وفي الموحِّدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم، وتتقلَّل عندهم وتدِقُّ إذا ذكروا الآخرة. وموضع الكاف رفع على الصفة[٤].

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يجفُّ بعد خضرته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: متغيِّرًا عما كان عليه من النضرة. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ أي: فُتاتًا وتِبْنًا فيذهب بعد حُسْنه، كذلك دنيا الكافر[٥]. ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: للكافرين. والوقف عليه حسن[٦]، ويبتدئ:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٧.

(٢) ١٠/ ٤٧٧، وعند الآية (٤٥) من سورة الكهف.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٧، وتفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢٧.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨٠.

(٦) لم نقف عليه.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي: للمؤمنين. وقال الفرَّاء[١]: «وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ» تقديره: إما عذاب شديد وإما مغفرة، فلا يُوقَف على «شَدِيدٌ». ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ هذا تأكيد ما سبق، أي: تغرُّ الكفَّار، فأما المؤمن فالدنيا له متاعُ بلاغٍ إلى الجنَّة[٢]. وقيل: العمل للحياة الدنيا متاع الغرورِ، تزهيداً في العمل للدنيا، وترغيباً في العمل للآخرة.

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: سارعوا بالأعمال الصالحة التي تُوجِب المغفرة لكم من ربِّكم[٣]. وقيل: سارعوا بالتوبة[٤]؛ لأنَّها تؤدي إلى المغفرة، قاله الكلبيُّ. وقيل: التكبيرة الأولى مع الإمام، قاله مكحول. وقيل: الصف الأول[٥]. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لو وصل بعضها ببعض[٦]. قال الحسن: يعني جميع السماوات والأرضين مبسوطتان، كلٌّ واحدة إلى صاحبتها. وقيل: يريد لرجل واحد، أي: لكلِّ واحد جنَّة بهذه السَّعَة. وقال ابن كيسان: عنى به جنَّة واحدة من الجنَّات. والعَرْض أقلُّ من الطول، ومن عادة العرب أنَّها تعبِّر عن سَعِة الشيء بعَرْضه دون طوله. قال:

كَأَن بِلَادَ اللهِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ ... على الْخَائِفِ المطْلوبِ كفَّةُ حابِلِ

وقد مضى هذا كلُّه في «آلِ عمران»[٧]. وقال طارق بن شهاب: قال قوم من أهل الحِيْرَة لعمر ﷺ: أرأيتَ قولَ الله عزَّ وجلَّ: «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْض» فأين النارُ؟ فقال لهم عمر: أرأيتم الليل إذا وَلَّى وجاء النهار أين يكون الليل؟ فقالوا: لقد نزعت بما في التوراة مثله[٨].

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٥ .
(٢) الوسيط ٤/ ٢٥٢ .
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٣ .
(٤) مجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ١٥٥ .
(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨١ .
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩ .
(٧) ٥/ ٣١٣ - ٣١٧ ، والبيت سلف تخريجه هناك ٥/ ٣١٥ .
(٨) سلف تخريجه ٥/ ٣١٥ .

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ شَرَط الإيمانَ لا غير، وفيه تقويةُ الرجاء[١]. وقد قيل: شَرَط الإيمانَ هنا، وزاد عليه في «آل عمران» فقال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [الآيـــة: ١٣٤]. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: إنَّ الجنَّة لا تُنال ولا تُدخَل إلا برحمة الله تعالى وفَضْله[٢]. وقد مضى هذا في «الأعراف»[٣] وغيرها. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ قال مقاتل: القَحْط وقلَّة النبات والثمار. وقيل: الجوائح في الزرع[٤]. ﴿وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ بالأوصاب والأسقام، قاله قتادة. وقيل: إقامة الحدود، قاله ابن حيان. وقيل: ضيق المعاش، وهذا معنى رواية ابن جريج[٥]. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ. ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ الضمير في «نَبْرَأَهَا» عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع. وقال ابن عباس: من قبل أن يَخْلق المصيبة[٦]. وقال سعيد بن جبير: من قبل أن يخلق الأرض والنفس[٧]. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: خَلْق ذلك وحِفْظ جميعه «عَلَى الله يَسِيرٌ»

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٥٢.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩.

(٣) ٩/ ٢٢٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨١ دون عزوه لمقاتل، والجوائح: جمع جائحة، وهي الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المالَ من سَنَة أو فتنة. اللسان (جوح).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢، وما بعده منه أيضاً، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٥، والطبري ٢٢/ ٤١٩.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٢٠.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩ دون عزو، وما بعده منه أيضاً.

هيِّن. قال الربيع بن صالح: لما أُخِذَ سعيد بن جبير ﷺ بَكَيت، فقال: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لما أرى بكَ، ولما تذهب إليه. قال: فلا تَبْكِ؛ فإنَّه كان في عِلْم الله أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ» الآية[١]. وقال ابن عباس: لما خَلَق الله القَلَم قال له: اكتب. فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة[٢]. ولقد ترك لهذه الآية جماعةٌ من الفضلاء الدواءَ في أمراضهم فلم يستعملوه؛ ثقةً بربِّهم، وتوكُّلًا عليه، وقالوا: قد علم الله أيَّام المرض وأيَّام الصحة، فلو حرص الخَلْق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا، قال الله تعالى: «مَا أَصَابَ من مُصِيبَةٍ في الأرضِ ولا في أنفسِكم إلَّا في كتابٍ من قَبْلِ أن نَبْرَأَها».

وقد قيل: إنَّ هذه الآية تتَّصل بما قبل، وهو أنَّ الله سبحانه هوَّن عليهم ما يصيبهم في الجهاد من قَتْلٍ وجَرْح، وبيَّن أنَّ ما يخلِّفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران، فالكلُّ مكتوب مقدَّر لا مدفع له، وإنَّما على المرء امتثال الأمر.

ثم أدَّبهم فقال هذا: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق. وذلك أنَّهم إذا علموا أنَّ الرزق قد فُرِغ منه لم يَأْسَوْا على ما فاتهم منه. وعن ابن مسعود أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «لا يجد أحدكم طَعْمَ الإيمان حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه» ثم قرأ: «لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ»[٣]. أي: كي لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا، فإنَّه لم يُقدَّر لكم، ولو قُدِّر

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/٣٢٨.

(٢) سلف ١/٣٥٨.

(٣) لم نقف عليه هكذا مرفوعاً، بل أخرج عبد الرزاق في المصنف (٢٠٠٨٢) - ومن طريقه الطبراني في الكبير (٨٧٩٠) - عن معمر، عن قتادة أن ابن مسعود قال: ثلاث من كنَّ فيه يجد حلاوة الإيمان: ترك المراء في الحق، والكذب في المزاحة، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٥٥: رواه الطبراني، وقتادة لم يسمع من ابن مسعود. اهـ.
وفي الباب عن جابر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشرِّه، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال الترمذي: حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون، وعبد الله بن ميمون منكر الحديث.

لكم لم يفتْكم ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: من الدنيا، قاله ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: من العافية والخِصْب[١]. وروى عِكرمة عن ابن عباس: ليس مِن أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبرًا، وغنيمته شكراً[٢]. والحزن والفرح المنهيُّ عنهما هم اللَّذان يتعدَّى فيهما إلى ما لا يجوز، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: متكبِّر بما أُوتِيَ من الدنيا، فخور به على الناس.

وقراءة العامة: «آتَاكُمْ» بمدِّ الألف، أي: أعطاكم من الدنيا. واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو: «أَتَاكُمْ» بقَصْر الألف، واختاره أبو عبيد[٣]. أي: جاءكم، وهو معادل لـ«فَاتَكُمْ» ولهذا لم يقل: أفاتكم.

قال جعفر بن محمد الصادق: يا بنَ آدمَ مالَكَ تأسى على مفقود لا يردّه عليك الفَوْت، أو تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت[٤]. وقيل لِبُزُرْجُمِهْر: أيُّها الحكيم! مالك لا تحزن على ما فات، ولا تفرح بما هو آتٍ؟ قال: لأنَّ الفائت لا يتلافى بالْعَبْرةِ، والآتي لا يُستدام بالحَبْرةِ[٥]. وقال الفضيل بن عِياض في هذا المعنى: الدنيا مُبِيد ومُفِيد، فما أباد فلا رجعةَ له، وما أفاد آذن بالرحيل. وقيل: المختال: الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار. والفخور: الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار. وكلاهما شِرْكٌ خفيٌّ. والفخور بمنزلة المُصَرَّاةِ تُشَدُّ أخلافها ليجتمع فيها

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢ ، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ٢٢/ ٤٢١ ، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٠ (١٨٨٣٢) .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢ ، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٧٣ - ٣٧٤ ، والطبري ٢٢/ ٤٢١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٥ ، والقراءة في السبعة ص ٦٢٦ ، والتيسير ص ٢٠٨ ، والحجة للفارسي ٦/ ٢٧٥ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩ .

(٥) مجمع البيان للطبرسي ٢٧/ ١٥٦ ، والحَبْرة : السرور . القاموس (حبر). وبُزُرْجُمِهْر: وزير أنوشروان، واسمه مركَّب من جزأين : بُزُرْج ، وهو معرَّب بزرك ، أي : عظيم . ومهر بمعنى : شمس . تاج العروس (بزرج) ، وإعجام الأعلام لمحمود مصطفى ص ٧٣ - ٧٤ .

اللبن، فيتوهَّم المشتري أنَّ ذلك معتاد وليس كذلك، فكذلك الذي يرى من نفسه حالًا وزينةً وهو مع ذلك مدَّع فهو الفخور.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ أي: لا يحب المختالين «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ» فـ«الَّذِينَ» في موضع خفض، نعتًا للمختال[١]. وقيل: رفع بابتداء[٢]، أي: الذين يبخلون فالله غنيٌّ عنهم. قيل: أراد رؤساء اليهود الذين يبخلون ببيان صفة محمَّد ﷺ التي في كتبهم؛ لِئلا يؤمنَ به الناس، فتذهب مأكلتهم، قاله السديُّ والكلبيُّ. وقال سعيد بن جبير: «الَّذِينَ يَبْخَلُون» يعني: بالعلم[٣] ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ أي: بألَّا يعلِّموا الناس شيئاً. زيد بن أسلم: إنَّه البخل بأداء حقِّ الله عزَّ وجلَّ. وقيل: إنَّه البخل بالصدقة والحقوق، قاله عامر بن عبد الله الأشعريُّ. وقال طاوس: إنَّه البخل بما في يديه[٤]. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. وفرَّق أصحاب الخواطِر بين البخل والسخاء بفرقين: أحدهما: أنَّ البخيل الذي يلتذُّ بالإمساك. والسخيَّ الذي يلتذُّ بالإعطاء. الثاني: أنَّ البخيل الذي يُعطي عند السؤال، والسخيَّ الذي يعطي بغير سؤال.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن الإيمان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ غنيٌّ عنه[٥]. ويجوز أن يكون لما حثَّ على الصدقة أعلمهم أنَّ الذين يبخلون بها، ويأمرون الناس بالبخل بها، فإنَّ الله غنيٌّ عنهم.

وقراءة العامة: «بالْبُخْلِ» بضمِّ الباء وسكون الخاء. وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن وحمزة والكسائيُّ: «بِالْبَخَلِ»

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٩٩ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٦ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨٢ ، وما بعده منه أيضاً .

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٩ .

بفتحتين[١]، وهي لغة الأنصار. وقرأ أبو العالية وابن السَّمَيْفع «بِالْبَخْلِ» بفتح الباء وإسكان الخاء. وعن نصر بن عاصم: «الْبُخُلِ» بضمَّتين، وكلُّها لغات مشهورة. وقد تقدَّم الفرق بين البخل والشحِّ في آخر «آل عمران»[٢].

وقرأ نافع وابن عامر: «فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» بغير «هُوَ»[٣]. والباقون: «هُوَ الْغَنِيُّ» على أن يكون فصلًا. ويجوز أن يكون مبتدأ، و«الْغَنِيُّ» خبره، والجملة خبر «إنَّ». ومن حذفها فالأحسن أن يكون فصلًا؛ لأنَّ حذف الفصل أسهل من حذف المبتدأ[٤].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات البيِّنة والشرائع الظاهرة[٥]. وقيل: الإخلاص للَّه تعالى في العبادة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، بذلك دعت الرسل، نوح فمَن دونه إلى محمَّد ﷺ. ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: الكتب، أي: أوحينا إليهم خبر ما كان قبلهم ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ قال ابن زيد: هو ما يُوزَن به ويتعامل[٦] ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل في معاملاتهم[٧]. وقوله: «بِالْقِسْطِ»

(١) السبعة ص ٢٣٣، والتيسير ص ٩٦.
(٢) ٥/ ٤٤١.
(٣) السبعة ص ٦٢٧، والتيسير ص ٢٠٨.
(٤) الحجة للفارسي ٦/ ٢٧٦.
(٥) الكشاف ٤/ ٦٦.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧.
(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٢٩.

يدلُّ على أنَّه أراد الميزان المعروف. وقال قوم: أراد به العدل[١]. قال القشيريُّ: وإذا حملناه على الميزان المعروف، فالمعنى: أنزلنا الكتابَ ووضعنا الميزان، فهو من باب:

عَلَفْتُهَا تِبْنًا وماءً بارِدًا[٢]

ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٧-٩] وقد مضى القول فيه. ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ روى عمر ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله أنزل أربع بركاتٍ من السماء إلى الأرض: الحديد والنار والماء والملح»[٣]. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: ثلاثة أشياء نزلت مع آدمَ عليه السلام: الحجر الأسود وكان أشدَّ بياضاً من الثلج، وعصا موسى وكانت من آسِ الجنَّة، طولها عشرة أذرع مع طول موسى، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء: السندان والكَلْبَتان والمِيقَعة، وهي المِطرقة، ذكره الماورديُّ[٤].

وقال الثعلبيُّ: قال ابن عباس: نزل آدم من الجنَّة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدَّادين: السَّنْدان، والْكَلْبَتَان، والمِيقَعة، والمِطْرقة، والإبرة. وحكاه القشيريُّ قال: والمِيقَعة: ما يحدَّد به؛ يقال: وَقَعْتُ الحديدَةُ أَقَعُها، أي: حَدَدتها[٥]. وفي «الصحاح»[٦]: والمِيقَعة: الموضع الذي يألفه البازِيُّ[٧] فيقع عليه، وخشبة القَصَّار التي يَدقُّ عليها، والمِطْرقة والمِسنُّ الطويل.

---

(١) زاد المسير ٨/ ١٧٤.

(٢) سلف ١/ ٢٩١.

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ٢٥٣، والديلمي في الفردوس ١/ ١٧٥، والبغوي في التفسير ٤/ ٢٩٩، والطبرسي في مجمع البيان ٢٧/ ١٥٧، وابن حجر في الكافي الشاف ص ١٦٤ ولكن عن ابن عمر رضي الله عنهما، وعزاه - أي ابن حجر - للثعلبي، وقال: وفي إسناده من لا أعرفه.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٤٨٣، وفيه: مثل طول موسى، بدل: مع طول موسى.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ٣٧.

(٦) مادة: (وقع).

(٧) البازيُّ: واحد البُزاة التي تَصِيدُ، ضَرْبٌ من الصقور. اللسان (بزا).

وروي أنَّ الحديد أُنزل في يوم الثلاثاء. «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» أي: لإهراق الدماء. ولذلك نُهيَ عن الفَصْد والحِجامة في يوم الثلاثاء؛ لأنَّه يوم جرى فيه الدم. وروي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «في يوم الثلاثاء ساعة لا يرقأ فيها الدم»(١). وقيل: «أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ» أي: أنشأناه وخلقناه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾(٢) [الزمر: ٦] وهذا قول الحسن. فيكون من الأرض غير منزل من السماء(٣). وقال أهل المعاني: أي: أخرج الحديد من المعادن وعلَّمهم صنعته بوحيه(٤). «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» يعني: السلاح والكُرَاع والجُنَّة(٥). وقيل: أي: فيه من خشية القتل خوف شديد(٦). ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ قال مجاهد: يعني: جُنَّة(٧). وقيل: يعني انتفاع الناس بالماعون من الحديد، مثل السكين والفأس والإبرة ونحوه(٨).

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي: أنزل الحديد؛ ليعلم من ينصره. وقيل: هو عطف على قوله تعالى: «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسطِ» أي: أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب، وهذه الأشياء؛ ليتعامل الناس بالحقِّ، «وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» وليرى الله من ينصر دينه(٩) ﴿وَ﴾ ينصر ﴿رُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال ابن عباس: ينصرونهم: لا يكذِّبونهم،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٦٢) عن أبي بكرة نفيع الحارث الثقفي ﷺ، والراوية عنه ابنتُه كَيِّسة، ولا يُعرف حالها. كذا قال ابن حجر في لسان الميزان ٧/ ٥٢٩ . وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٥/ ٣٤٩: في إسناده: أبو بكرة بكَّار بن عبد العزيز بن أبي بكرة. قال يحيى بن معين: ليس حديثه بشيء. وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به. اهـ. وعدَّه ابن الجوزي في الموضوعات (١٦٢٤). ومعنى يرقأ: ينقطع. اللسان (رقأ).

(٢) زاد المسير ٨/ ١٧٤ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٣ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ .

(٥) الكراع: السلاح، وقيل: اسم يجمع الخيل والسلاح. والجُنَّة: ما واراك من السلاح واستترت به منه. اللسان (كرع) و(جنن).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٨٣ .

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٦٥٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٢٦ .

(٨) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٥٤ .

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ .

ويؤمنون بهم «بِالْغَيْبِ» أي: وهم لا يرونهم .﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ «قَوِيٌّ» في أخذه «عَزِيزٌ» أي: منيع غالب. وقد تقدَّم[١]. وقيل: «بِالْغَيْبِ» بالإخلاص.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ فصَّل ما أجمل من إرسال الرُّسل بالكتب، وأخبر أنَّه أرسل نوحًا وإبراهيم وجعل النبوَّة في نسلهما[٢] ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جعلنا بعض ذرِّيَّتهما الأنبياء، وبعضهم أُمماً يتلون الكتب المنزلة من السماء: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان[٣]. وقال ابن عباس: الكتاب: الخطُّ بالقلم[٤] ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من ائتمَّ بإبراهيم ونوح ﴿مُّهْتَدٍ﴾. وقيل: «فَمِنْهُمْ مُهتَدٍ» أي: من ذرِّيَّتهما مهتدون .﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ كافرون خارجون عن الطاعة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي: أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: على آثار الذرِّيَّة. وقيل: على آثار نوح وإبراهيم[٥] ﴿بِرُسُلِنَا﴾ موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ فهو من ذرِّيَّة إبراهيم من جهة أمِّه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه. وقد تقدَّم اشتقاقه في أوَّل سورة «آل عمران»[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ على دينه، يعني الحواريين

---

(١) ١٤/ ٤١٢ - ٤١٣ .
(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٠ .
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٩ .
(٤) الكشاف ٤/ ٦٧ .
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧ .
(٦) ٥/ ١١ .

وأتباعهم[١] ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: مَودَّةً، فكان يوادُّ بَعضهم بعضًا[٢]. وقيل: هذا إشارة إلى أنَّهم أُمروا في الإنجيل بالصلح وتَرْكِ إيذاء الناس، وألانَ الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرَّفوا الكَلِمَ عن مواضعه. والرأفة: اللين، والرحمة: الشفقة. وقيل: الرأفة: تخفيف الْكَلِّ. والرحمة: تحمُّل الثقل[٣]. وقيل: الرأفة: أشدُّ الرحمة. وتمَّ الكلام. ثم قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي: من قِبَلِ أنفسِهم. والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبةً بإضمار فعل[٤]، قال أبو عليٍّ: وابتدعوها رهبانيةً ابتدعوها. وقال الزجَّاج[٥]: أي: ابتدعوها رهبانيةً، كما تقول: رأيت زيداً وعَمْراً كلَّمتُ. وقيل: إنَّه معطوف على الرأفة والرحمة[٦]، والمعنى على هذا أنَّ الله تعالى أعطاهم إياها فغيَّروا وابتدعوا فيها.

قال الماورديُّ[٧]: وفيها قراءتان؛ إحداهما: بفتح الراء، وهي الخوف من الرَّهب. الثانية: بضمِّ الراء[٨]، وهي منسوبة إلى الرُّهبان، كالرُّضْوانيَّة من الرُّضْوان؛ وذلك لأنَّهم حَمَلوا أنفسهم على المشقَّات في الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلُّق بالكهوف والصوامع[٩]، وذلك أنَّ ملوكهم غيَّروا وبَدَّلوا، وبقي نفر قليل فترهَّبوا وتبتَّلوا. قال الضحَّاك: إنَّ ملوكًا بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلاث مئة سنة، فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوهم، فقال قوم بقوا بعدهم: نحن إذا نهيناهم قتلونا، فليس يَسَعُنا المقام بينهم، فاعتزَلوا الناس واتَّخذوا

(١) زاد المسير ٨/ ١٧٦ .
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٨٤ ، والكَلُّ: المصيبة تحدث. اللسان (كلل).
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧ .
(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٣٠ .
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٨ .
(٧) في النكت والعيون ٥/ ٤٨٤ .
(٨) الكشاف ٤/ ٦٧ ، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٨ .
(٩) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ .

الصوامع[١]. وقال قتادة: الرهبانيَّة التي ابتدعوها رَفْضُ النساء واتِّخاذ الصوامع. وفي خبر مرفوع: هي لحوقهم بالبراري والجبال[٢].

﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها، قاله ابن زيد[٣]. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أمرناهم إلا بما يُرضِي الله، قاله ابن مسلم. وقال الزجَّاج[٤]: «مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِم» معناه: لم نكتب عليهم شيئًا ألبتَّة. ويكون «ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ» بدلًا من الهاء والألف في «كَتَبْنَاهَا»، والمعنى: ما كتبناها عليهم، إلا ابتغاءَ رضوان الله. وقيل: «إِلَّا ابْتِغَاءَ» الاستثناء منقطع[٥]، والتقدير: ما كتبناها عليهم، لكن ابتدعوها؛ ابتغاءَ رضوان الله.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: فما قاموا بها حقَّ القيام. وهذا خصوص؛ لأنَّ الذين لم يَرْعوها بعض القوم، وإنَّما تسبَّبوا بالترهُّب إلى طلب الرياسة على الناس وأكْلِ أموالهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] وهذا في قوم أدَّاهم الترهُّب إلى طلب الرياسة في آخر الأمر.

وروى سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا» قال: كانت ملوكٌ بعد عيسى بدَّلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل، ويَدْعُون إلى دين الله تعالى، فقال أناس لملكهم: لو قتلتَ هذه الطائفة. فقال المؤمنون: نحن نكفيكم أنفسنا. فطائفة قالت: ابنوا لنا اسطوانةً ارفعونا فيها، وأعطونا شيئًا نَرفعُ به طعامنا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٤، وفيه: فاعتزلوا النساء، بدل: فاعتزلوا الناس.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٤ والقول الثاني فيه هكذا: أنها لحوقهم بالجبال، ولزومهم البراري، وروي فيه خبر مرفوع. اهـ. وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٢٨، والحديث المرفوع سيأتي ص٢٧٤-٢٧٥ من هذا الجزء عن ابن مسعود ﷺ، وثمة تخريجه هناك.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٦، والطبري ٢٢/ ٤٢٨.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٣٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٧ - ٣٦٨، وما بعده منه أيضاً.

وشرابنا ولا نَرِدُ عليكم. وقالت طائفة: دعونا نهيم في الأرض ونسيح، ونشرب كما تشرب الوحوش في البرِّيَّة، فإذا قَدَرْتم علينا فاقتلونا. وطائفة قالت: ابنوا لنا دُوراً في الفيافي، ونحتفر الآبار، ونَحترِث البقول، فلا تروننا ـ وليس أحد من هؤلاء إلا وله حميم منهم ـ ففعلوا، فمضى أولئك على منهاج عيسى، وخَلَف قوم من بعدهم ممن قد غيَّر الكتاب فقالوا: نسيح ونتعبَّد كما تعبَّد أولئك، وهم على شِرْكهم لا عِلْم لهم بإيمانِ مَن تقدَّم من الذين اقْتَدَوْا بهم، فذلك قوله تعالى: «ورهبانيَّةً ابتدعُوها ما كَتَبْنَاها عَلَيْهم إلا ابتغاءَ رضوانِ اللهِ» الآية[1]. يقول: ابتدعها هؤلاء الصالحون «فَمَا رَعَوْهَا» المتأخِّرون «حَقَّ رِعَايَتِهَا» ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يعني الذين ابتدعوها أوَّلًا ورَعوها ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ يعني المتأخِّرين، فلما بعث الله محمَّدًا ﷺ ولم يَبْقَ منهم إلا قليل، جاؤوا من الكهوف والصَّوَامع والغِيران فآمنوا بمحمَّد ﷺ[2].

الثالثة: وهذه الآية دالَّة على أنَّ كلَّ مُحدَثة بدعةٌ، فينبغي لمن ابتدعَ خيراً أن يدوم عليه، ولا يعدل عنه إلى ضدِّه؛ فيدخل في الآية[3]. وعن أبي أمامة الباهلي ـ واسمه: صُدَيُّ بن عَجْلان ـ قال: أحدثتم قيامَ رمضان ولم يُكتَب عليكم، إنَّما كُتبَ عليكم الصيام، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه، فإنَّ ناسًا من بني إسرائيل ابتدعوا بِدَعًا لم يكتبها الله عليهم، ابتغوا بها رضوان الله فما رَعَوها حقَّ رعايتها، فعاتَبهم الله بتَرْكها فقال: «ورهبانيَّة ابتدعُوها ما كَتَبْنَاها عَلَيهم إلا ابتغاءَ رضوانِ اللهِ فَمَا رَعَوْها حقَّ رعايَتِها»[4].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٠١ ، والأثر أخرجه النسائي في المجتبى ٨/ ٢٣١-٢٣٣ ، وفي الكبرى (٥٩٠٨) و(١١٥٠٣) من طريق الفضل بن موسى ، عن سفيان ، به . والأسطوانة: السارية. المعجم الوسيط (أسطوانة).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٠١ .

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤١٦ - ٤١٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٣٣ ، والخبر أخرجه الطبري ٢٢/ ٤٣٣ عن أبي أمامة موقوفاً . وأخرجه عنه مرفوعاً الطبراني في الأوسط (٧٤٤٦) ، وقال : لا يروى هذا الحديث عن أبي أمامة إلا بهذا الإسناد ، تفرَّد به إسماعيل بن عمرو . اهـ . وهو إسماعيل بن عمرو بن نجيح البَجَلي الكوفي ثم =

الرابعة: وفي الآية دليل على العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغيُّر الأصدقاء والإخوان. وقد مضى بيان هذا في سورة «الكهف»[١] مستوفًى، والحمد لله.

وفي «مسند أحمد بن حنبل» من حديث أبي أمامة الباهليِّ ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سَرِيَّة من سراياه قال: فمَرَّ رجلٌ بغارٍ فيه شيءٌ من ماء، فحدَّث نفسه بأن يقيم في ذلك الغارِ، فَيَقُوته ما كان فيه من ماء، ويُصِيب ما حوله من البَقْل، ويتخلَّى عن الدنيا. قال: لو أنِّي أتيت النبيَّ ﷺ فذكرتُ ذلك له، فإن أَذِنَ لي، فَعَلْتُ، وإلا لم أفعل، فأتاه فقال: يا نبيَّ الله! إنِّي مررتُ بغارٍ فيه ما يَقُوتني من الماء والبقل، فحدَّثتني نفسي بأن أُقيم فيه وأتخلَّى من الدنيا. قال: فقال النبيُّ ﷺ: «إنِّي لم أُبعَث باليهوديَّة ولا بالنصرانيَّة، ولكنِّي بُعِثتُ بالحنيفيَّة السَّمْحة، والذي نفسُ محمَّد بيده لغَدْوةٌ أو رَوْحةٌ في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولَمَقام أحدِكم في الصفِّ الأوَّل خيرٌ من صلاته ستِّين سنةً»[٢].

وروى الكوفيون عن ابن مسعود، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «هل تدرِي أيُّ الناس أَعلم»؟ قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: «أعلم الناس أبصرهم بالحقِّ إذا اختلف الناس فيه وإن كان مقصِّرًا في العمل، وإن كان يزحف على اسْتِهِ، هل تدري من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانيَّة؟ ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزم أهل الإيمان ثلاثَ مرَّات، فلم يَبْقَ منهم إلا القليل فقالوا: إن أَفنونا فلم يَبْقَ للدِّين أَحَدٌ يدعوا إليه، فتعالوا نفترق في

= الأصبهاني، قال ابن عدي: حدَّث بأحاديث لا يتابع عليها. وقال أبو حاتم والدارقطني: ضعيف. ميزان الاعتدال ١/ ٢٣٩.

(١) ١٣/ ٢١٧.

(٢) أحمد (٢٢٢٩١)، وأخرجه أيضًا الطبراني في الكبير (٧٨٦٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٧٩: رواه أحمد والطبراني، وفيه: علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف. اهـ. وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ بنحو هذه القصة أخرجه عنه الترمذي (١٦٥٠)، وأحمد (٩٧٦٢). قال الترمذي: حديث حسن.

الأرض إلى أن يبعث الله النبيَّ الأُمِّيَّ الذي وعدنا عيسى ـ يعنون محمَّداً ﷺ ـ فتفرَّقوا في غِيران الجبال وأحدثوا رهبانيةً، فمنهم من تمسَّك بدينه، ومنهم من كفر ـ وتلا: «وَرَهْبَانِيَّةً» الآية ـ أتدري ما رهبانيَّة أُمَّتي: الهجرة: والجهاد، والصوم، والصلاة، والحجُّ، والعمرة، والتكبير على التلاع، يا ابن مسعود اختلف مَن كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فنجا منهم ثلاثة، وهلك سائرها[١]، فرقة أزَّت[٢] الملوكَ وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى ـ عليه السلام ـ حتى قُتِلوا، وفرقة لم تكن لهم طاقة بمؤازاة[٣] الملوك أقاموا بين ظهراني قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير، وفرقة لم تكن لهم طاقة بمؤازاة الملوك، ولا بأن يقيموا بين ظهراني قومهم فيدعونهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فساحوا في الجبال وترهَّبوا فيها، وهي التي قال الله تعالى فيهم: «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا» ـ الآية ـ فمَن آمن بي واتَّبعني وصدَّقني، فقد رعاها حقَّ رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون»[٤]. يعني الذين تهوَّدوا وتنصَّروا. وقيل:

---

(١) في (ظ): سائرهم. وكذا في الموضع الآتي.

(٢) في (ظ) و(ق): وارت. وفي (م): وازت. والمثبت من مصادر التخريج، ومن النهاية (أزي) حيث قال: وفي الحديث: «وفرقة آزت الملوك» أي: قاومتهم. يقال: فلانٌ إزاءٌ لفلانٍ: إذا كان مقاوماً له.

(٣) في (ظ): بمواراة. وفي (م): بموازاة. وكذا في الموضع الآتي.

(٤) من قوله: وروى الكوفيون ... إلى قوله: وإن كان يزحف على استه. فمن أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٣٢. ومن قوله: هل تدري من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ... إلى نهاية الحديث، فمن تفسير البغوي ٤/ ٣٠٠ - ٣٠١، والحديث أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٢٩، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٧) من طريق بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود بنحوه مقطَّعًا. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٠ - ٢٦١: رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير بكير بن معروف، وثّقه أحمد وغيره، وفيه ضعف.

وأخرجه أيضاً المروزي في السنة (٥٤)، والطبري ٢٢/ ٤٣٠ - ٤٣١، والطبراني في الكبير (١٠٥٣١)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨٠ من طريق الصَّعِق بن حَزْن، عن عقيل، عن أبي إسحاق الهمداني، عن سويد بن غفلة، عن ابن مسعود ﷺ بنحوه مقطَّعًا. قال الحاكم: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: ليس بصحيح، فإن الصعق بن حزن، وإن كان موثقاً، فإن شيخه منكر الحديث، قاله البخاري. اهـ.

هؤلاء الذين أدركوا محمداً ﷺ فلم يؤمنوا به، فأولئك هم الفاسقون[١]. وفي الآية تسلية للنبيِّ ﷺ؛ أي: إنَّ الأوَّلين أصرُّوا على الكفر أيضًا، فلا تَعْجَبْ من أهل عصرك إن أصرُّوا على الكفر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: آمنوا بموسى وعيسى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ بمحمَّد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: مِثْلين من الأجر على إيمانكم بعيسى ومحمد صلى الله[٢] عليهما وسلم، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤] وقد تقدَّم القول فيه[٣]. والكِفْل: الحظُّ والنصيب، وقد مضى في «النساء»[٤]، وهو في الأصل كِساء يكتفل به الراكب، فيحفظه من السقوط، قاله ابن جريج[٥]. ونحوه قال الأزهريُّ[٦]، قال[٧]: اشتقاقه من الكِساء الذي يُحوِّيه راكب البعير على سنامه إذا ارتدفه، لئلا يسقط. فتأويله: يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي، كما يحفظ الكِفْلُ الراكبَ[٨]. وقال أبو موسى الأشعريُّ: «كِفْلَين»: ضعفين، بلسان الحبشة[٩]. وعن ابن زيد: «كِفْلَيْن» أجر الدنيا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٨.

(٢) تكررت هذه العبارة في (ظ) مرَّة ثانية، والكلام من النكت والعيون ٥/ ٤٨٥.

(٣) ١٦/ ٢٩٥.

(٤) ٦/ ٤٨٥.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٣٧ دون نسبة.

(٦) في تهذيب اللغة ١٠/ ٢٥٠.

(٧) ليست في (ظ).

(٨) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣١.

(٩) المحرر الوجيز ٥/ ٢٧١، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ١٠/ ٤١٧، ومجاهد في التفسير ٢/ ٦٥٨، والطبري ٢٢/ ٤٣٨.

والآخرة[١]. وقيل: لمَّا نزلت: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤] افتخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبيِّ ﷺ، فنزلت هذه الآية[٢].

وقد استدلَّ بعض العلماء بهذه الآية على أنَّ الحسنة إنَّما لها من الأجر مِثْل واحد، فقال: الحسنة اسم عامٌّ ينطلق على كلِّ نوع من الإيمان، وينطلق على عمومه، فإذا انطلقت الحسنة على نوع واحد فليس له عليها من الثواب إلا مِثْل واحد. وإن انطلقت على حسنة تشتمل على نوعين، كان الثواب عليها مِثْلين؛ بدليل هذه الآية فإنَّه قال: «كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ» والكِفْل: النصيب، كالمِثْل، فجعل لمن اتقى الله وآمن برسوله نصيبين؛ نصيباً لتقوى الله، ونصيباً لإيمانه برسوله، فدلَّ على أنَّ الحسنة التي جعل لها عشر هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات، وهو الإيمان الذي جمع الله تعالى في صفته عشرة أنواع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية بكمالها. فكانت هذه الأنواع العشرة التي هي ثوابها أمثالها، فيكون لكلِّ نوع منها مِثْل، وهذا تأويل فاسد؛ لخروجه عن عموم الظاهر في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] بما لا يحتمله تخصيص العموم؛ لأنَّ ما جمع عشر حسنات فليس يُجزَى عن كلِّ حسنة إلا بِمِثْلها. وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالها، والأخبار دالَّة عليه. وقد تقدَّم ذكرها[٣]. ولو كان كما ذكر لما كان بين الحسنة والسيئة فرقان.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ أي: بيانًا وهدًى، عن مجاهد. وقال ابن عباس: هو القرآن[٤]. وقيل: ضياء ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ في الآخرة على الصراط، وفي القيامة إلى الجنَّة. وقيل: تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإسلام، فتكونون رؤساء في دين

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٤٣٨.

(٢) الكشاف ٤/ ٦٨، وتفسير الرازي ٢٩/ ٢٤٧.

(٣) ٩/ ١٣٦، ١٦/ ٢٢٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨٦، وتفسير البغوي ٤/ ٣٠٢، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٤٤٢، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٥٨.

الإسلام لا تزول عنكم رياسة كنتم فيها، وذلك أنَّهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمَّد عليه السلام. وإنَّما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضَّعَفَة بتحريف أحكام الله، لا الرياسة الحقيقيَّة في الدين. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: ليعلم، و«أن لا» صلة زائدة مؤكدة؛ قاله الأخفش. وقال الفرَّاء: معناه: لأن يعلم، و«لا» صلة زائدة في كلِّ كلام دخل عليه جَحْد[1]. قال قتادة: حسَد أهلُ الكتاب المسلمين فنزلت: «لِئَلَّا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ»[2]. أي: لأن يعلم أهل الكتاب أنَّهم ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾. وقال مجاهد: قالت اليهود: يُوشِك أن يخرج منا نبيٌّ يقطع الأيدي والأرجل. فلما خرج من العرب كفروا، فنزلت: «لِئَلَّا يَعْلَمَ» أي: ليعلم أهل الكتاب «أَنْ لَا يَقْدِرُونَ» أي: أنَّهم لا يقدرون[3]، كقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: ٨٩].

وعن الحسن: «لَيْلَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ» وروي ذلك عن ابن مجاهد. وروى قُطْرُب: بكسر اللام وإسكان الياء[4]. وفتح لام الجرِّ لغة معروفة. ووجه إسكان الياء أنَّ همزة «أَنْ» حذفت فصارت «لَنْ» فأدغمت النون في اللام، فصار «لَلَّا» فلما اجتمعت اللَّامات أُبدلت الوسطى منها ياء، كما قالوا في أَمَّا: أَيْمَا. وكذلك القول في قراءة من قرأ: «لِيْلَا» بكسر اللام، إلا أنَّه أبقى اللام على اللغة المشهورة فيها، فهو أقوى من هذه الجهة.

وعن ابن مسعود: «لِكَيْلَا يَعْلَمَ»[5]، وعن حِطَّان بنِ عبد الله: «لأَنْ يَعْلَمَ»[6]،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٨٦، وكلام الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٧٠٥، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١٣٧.

(٢) أخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧٦، والطبري ٢٢/ ٤٤٣ - ٤٤٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٠٢.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٥٣، والمحتسب ٢/ ٣١٤، وما بعده منه أيضًا.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٥٣ عن عبد الله بن أبي سلمة، والكشاف ٤/ ٦٨ ولم ينسبها.

(٦) القراءات الشاذة ص ١٥٣.

وعن عِكرمة «لِيَعْلَمَ»[١]، وهو خلاف المرسوم.

﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ قيل: الإسلام. وقيل: الثواب. وقال الكلبيُّ: من رزق الله. وقيل: نِعَمُ الله التي لا تُحصى[٢]. «وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ» ليس بأيديهم فيصرفون النبوَّة عن محمَّد ﷺ إلى من يحبُّون. وقيل: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي: هو له ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

وفي «البخاري»: حدَّثنا الحكم بن نافع، قال: حدَّثنا شعيب، عن الزهريِّ، قال: أخبرني سالم بن عبد الله: أنَّ عبد الله بن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول وهو قائم على المنبر: «إنَّما بقاؤكم فيما سلف قَبْلَكم من الأُمم، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أُعطي أهلُ التوراةِ التوراةَ، فعملوا بها حتى انتصف النهار، ثم عَجَزوا، فأُعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أُعطي أهلُ الإنجيلِ الإنجيلَ، فعملوا به حتى صلاة العصر، ثم عَجَزوا، فأُعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أُعطيتم القرآنَ، فعملتم به حتى غروب الشمس، فأُعطيتم قيراطين قيراطين، قال أهل التوراة: ربَّنا هؤلاءِ أقلُّ عملًا وأكثرُ أجراً؟ قال: هل ظلمتكم من أَجْرِكم من شيء؟ قالوا: لا. فقال: فَضْلي أُوتيه من أشاء». وفي رواية: «فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: ربنا» الحديث[٣].
﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

تم تفسير سورة الحديد، والحمد لله

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٥٣ عن عبد الله، والكشاف ٤/ ٦٨ ولم ينسبها.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٦ دون ذكر قوله: وقيل: الثواب.

(٣) البخاري (٧٤٦٧)، وهو عند أحمد (٦٠٢٩)، والرواية الأخرى برقم (٢٢٦٨) و(٢٢٦٩)، وهي عند أحمد (٤٥٠٨).